شمس المعالي قابوس بن وشمكير

ورسائله المجموعة باسم (كمال البلاغة)

«تتمة ما سبق في الجزء التاسع»

أدب قابوس

لا أعرف أسماء الشيوخ الذين اقتبس قابوس منهم أدبه الغض وعلمه الجم . ولكن الذي وقفنا عليه من معارفه كاف للدلالة على الجهد المبذول في سبيل تثقيفه ، حتى أن خطه ايضاً كان في نهاية الحسن ، وكان الصاحب بن عباد يقول اذا رأى خطه « هذا خط قابوس ، أم جناح طاووس؟ »

كان عصر قابوس عصرَ التأنق في الاسجاع القصيرة بلا تكلف، والتفنن ببدائع اللفظ من غير افراط . وكان النثر ينتقل يومئذٍ من الاسلوب المرسل ، الممتاز بجزالة اللفظ ، وتناسق الاوضاع ، الى التزام السجع ، والتقيد بالجناس ، والتوسع في أنواع البديع . غير ان ذلك الاسلوب الجديد أتيحت له يومئذ أقلام فحول ملكوا ناصية اللغة ، وازدادت معرفتهم بأسرار البلاغة، واتسعت حيلتهم في ابتداع طرائق البيان. وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب والخوارزمي والهمذاني والصابي وغيرهم من معاصري قابوس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورسائل قابوس شاهد محسوس على انه من أهل هذه الطبقة الرفيعة ، بل ان جامع هذه الرسائل عبدالرحمن اليزدادي زعم أنه لم يكتب مثلها بالعربية لا قبلها ولا بعدها . وذكر السيد مصطفى صادق الرافعي في كتابه عن اعجاز القرآن (ص ١٨٤) ان من الملاحدة من زعم ان حكم قابوس وقصصه هي من بعض ما عورض به القرآن . ومهما تجرّدنا من مبالغة هؤلاء المتعصبين لقابوس لا نجد سبيلاً الى انكار ما نجده في رسائله من بلاغة وابداع ، وانما قصرت شهرته عمن ذكرناهم من معاصريه بين عامة زماننا لأن رسائله كانت نادرة الوجود في الاقطار (١)

وحسبنا شاهداً على أن قابوس كان أديب الملوك ومليك الادباء قول ابي منصور الثعالبي في اليتيمة : « أختم هذا الجزء الثالث من كتابي بذكر خاتمة الملوك وغرّة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان . من جمع الله له الى عزة الملك بسطة العلم ، والى فصل الحكمة نفاذ الحكم . فأوصافه لا تدرك بالعبارات ، ولا تدخل تحت العرف والعادات ، وآن لي أن أعمل كتاباً في أخباره وسيرته وذكر خصائصه ومآثره »

ومن أبدع ما وصف به هذا الملك الحازم الأريب قول معاصره ابي نصر العتبي في تاريخه المعروف باليميني :

« فالله شمس المعالي في همة بين المجرّة مجراها ، وفي بحار الكرم مجراها ومرساها . فلم يسمع في شيوخ الملوك بأشرف منه قيمة ، وأوطف ديمة ، وأكرم شيمة ، وأصدق بارقة مشيمة . وأوفر عقلاً وتحصيلا ، وأظهر جملة وتفصيلا . وأغزى للنفس بعفاف الحكمة ، واجزى للبدن بكفاف الطعمة . قد فطم النفس عن رضاع الملاهي ، فلم يعرف اللهو ما هو ولا البطالة ما هي . عِلماً منه بأن الملك واللهو ضدّان ، وأن ليس

---

(١) ان صاحب (كشف الظنون) على كثرة ما اطلع عليه من الكتب العربية التي ملأت خزائن القسطنطينية في وقته لم يعرف (كمال البلاغة) الا من غيره فقال انه لشمس المعالي قابوس ، ولو رآه بنفسه لذكر عبدالرحمن اليزدادي جامع هذه الرسائل . وقد سرى هذا الخطأ الى مؤلف (قاموس الاعلام) فقال في ترجمة قابوس ، وله مؤلفات في جملتها (كمال البلاغة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لالتقائهما تدان . نعم ولا احرص على انصاف الرعية ، وآخذ باطراف العدل في القضية . وأبرع في الآداب والحكم ، واجمع بين ذرابة السيف وذلاقة القلم . ورسائله موجودة في البلاد ، عند الافراد . لكني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق احسانه ... الخ »

وقال ابن الأثير (في حوادث سنة ٤٠٣) : « وكان قابوس غزير الادب وافر العلم . لهُ رسائل وشعر حسن . وكان عالمًا بالنجوم وغيرها من العلوم »

ومن شواهد علمه الرسائل الفلسفية التي في آخر (كمال البلاغة) . قال اليزدادي : « وقد ختمت الكتاب بها ليتعجب الناس منها ، كأنه موضع العجب لمن انصف واعترف بالحق . فمن أصعب الامور استعمال الكلام الرسائلي في شرح المعاني الفلسفية بتلك الفصاحة والعذوبة التي يعجز عنها الخلق قاطبة ! »

رسائل قابوس

كانت (رسائل قابوس) من الكتب التي نسمع بها ولا نراها ، حتى ورد في الايام الاخيرة من السيد نعمان الأعظمي ببغداد الى ادارة المطبعة السلفية بالقاهرة كتاب مخطوط عنوانه كمال البلاغة لعبدالرحمن بن علي اليزدادي ، وفي آخره « تمت الرسالة المروية .. وفرغ من تحريرها .. احمد بن عثمان بن محمد .. يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٦٣٣ (١) »

وهذا المخطوط في ٢٧٤ صفحة بطول ١٩٦ ملمترًا وعرض ٨٠ وفي كل صفحة ١٧ سطرًا . وهو بخط نسخي حسن الضبط . ولما تصفحته وجدته مؤلفًا من كتابين اولهما (كمال البلاغة) والثاني كتاب سمي في خطبته باسم (قنية المترسل وغنية المتوسل) ثم سمي في نهايته باسم (الرسالة المروية) ولم نعرف اسم مؤلفه لسقوط ورقة أو اكثر من المجموعة ، فضاع بسبب ذلك مقدار وجيز من آخر (كمال البلاغة) ومثله من أول (قنية المترسل) . ومن الغريب أن أرقام الصفحات متصلة في موضع النقص ،

---

(١) ان رسم الرقم ٦ من تاريخ الكتابة يحتمل ان يكون ٩ لولا ان ظواهر النسخة تدل على قدمها فنرجح أنها من القرن السابع لا من القرن العاشر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن كمال البلاغة ينقطع في نهاية الصفحة ١١٤ ويأتي كتاب قنية المترسل في رأس الصفحة ١١٥ مبتورَ الاول

وعندما تبين لنا النقص في مفصل الكتابين من هذه النسخة علمنا أن لدى السيد نعمان الاعظمي نسخة ثانية من كمال البلاغة فاستحضرناها بالبريد الجوّي . وهي تتضمّن بعد (كمال البلاغة) طائفة من منثور معاصري قابوس ومنظومهم . وفي مقدمتهم الصابي وابن عباد والباخرزي والميكالي والعتبي والضبي وغيرهم من المترسلين والشعراء . وفي خلال المجموع نبذ من (المنثور البهائي) لعلي بن محمد بن خلف ، وهو الذي نقل به حماسة ابي تمام من النظم الى النثر ووسمه باسم بهاء الدولة ابن بويه

وهذه المجموعة في ١١٦ صفحة بطول ٢٦ سنتيمتراً وعرض ١٥ وفي كل صفحة ٢٠ سطراً . وهي بخط فارسي معلق وليس فيها اسم كاتبها ولا تاريخ كتابتها . و (كمال البلاغة) لا يزيد في هذه النسخة على عشرين صفحة من صفحاتها الكبيرة الدقيقة الخط . وقد أسقط ناسخها من مقدمة اليزدادي ما يتعلق بأنواع البديع . وأهمل بيانات قدمها اليزدادي بين يدي بعض رسائل قابوس ، ولم يورد الرسائل الفلسفية التي في آخر الكتاب

وأهم ما استفدناه من هذه النسخة الثانية تكميل نقص مهم وقع في النسخة الاولى فأكملناه من تلك ووضعناه هو وجميع الزيادات التي استفدناها من النسخة الثانية بين هاتين العلامتين [ ]

وينقسم كتاب (كمال البلاغة) الى اربعة اقسام : الاول بيان أنواع البديع التي وجدها اليزدادي في كلام قابوس مما لم يسبقه اليها أحد . والثاني رسائل قابوس الى غير الصاحب بن عباد . والثالث رسائله الى الصاحب وأجوبة الصاحب عليها ، وأظن ذلك كان في المدة التي خرج فيها الملك من يد قابوس واستولى عليه فخر الدولة ابن بويه الذي كان الصاحب وزيراً له . والقسم الرابع رسائل قابوس الفلسفية

وبعد فان رسائل قابوس في منزلة عالية من البلاغة ، وما فيها من بديع فسلس مطبوع ، وسيكون لانتشار محاسنها على ألسنة الناس بعد طبعها أثر يظهر على أسلات اقلام الادباء ، كما رأينا فيما نشر قبلها من الآثار الادبية التي من درجتها . واما قول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليزدادي : « ان احداً لم يسمع كلاماً مؤلفاً بالعربية مثل كلام هذه الرسائل ، وليس وراء هذا نهاية يرجى بلوغها ، لان اللسان العربيّ قد اتى منه ببيضة القصر » فانّا نعدّه من اغراق الاعاجم الذي لا يوافقهم عربيّ عليه

وبالجملة فان رسائل قابوس من ابدع ما انتجته قرائح اهل القرن الرابع . وبقدر ما كنا آسفين على فقدها نسرّ الآن بوجودها وإحيائها بالطبع

شعر قابوس :

ونظم قابوس الشعر بالعربية والفارسية ، وكان مقلاً فيهما . ومن شعره العربي قوله :

قل للذي بصروف الدهر عيَّرنا ... هل حارب الدهرُ الاّ من له خطرُ
اما ترى البحر تعلو فوقه جيف ... وتستقرّ بأقصى قعره الدرر
فان تكن نثبت ايدي الزمان بنا ... ونالنا من تمادي بؤسه الضرر
ففي السماء نجوم مالها عدد ... وليس يكسف الاّ الشمس والقمر

عبد الرحمن اليزدادي :

وآل يزداد من البيوت المعروفة في الاسلام بالعلم والادب والجاه . وقد اشتهر منهم في القرن الثالث ابو صالح عبدالله بن محمد بن يزداد الذي اتخذه امير المؤمنين المستعين العباسي وزيراً له سنة ٢٤٩ ، وللبحتري فيه مدائح بليغة وردت في ديوانه

ومنهم في القرن الرابع ابو العباس اليزدادي المعاصر للشمس محمد بن احمد المقدسي البشاري وذكره في (احسن التقاسيم) المؤلف في فارس سنة ٣٧٥

واشتهر منهم في الحديث ابو السفر يحيى بن يزداد

اما عبدالرحمن بن علي اليزدادي جامع رسائل قابوس فلم اظفر له بترجمة فيما عندي من الكتب ، رغم ما بذلت في سبيل ذلك من جهد ووقت ، وفوق كل ذي علم عليم (ا هـ)

القاهرة محب الدين الخطيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net